The irony of maqama "Summary nectar in describing of the fire"

Dr. Mona AlAli*

(Received 2 / 8 / 2024. Accepted 31 / 10 / 2024)

□ ABSTRACT □

This research aims to identify the phenomenon of paradox and its manifestations in the maqamat titled "Safou Al-Raheeq fi Description Al-Hariq" by its author, Ibn Al-Wardi. Irony allows the reader of prose text to enter his literary world and thus performs several functions. It is an effective threshold, and one of the keys to decoding the literary text.

The research concluded that the paradox reflected the contrast between the state of Damascus before and after the fire, and this was represented by the contrast between the direct meaning of the spoken word and the indirect meaning. Ibn al-Wardi adopted the method of semantic accumulation of sub-contrasts within the maqamat to reach the pinnacle of paradox. As the writer deliberately and plans it through the contrast between the apparent and the hidden, it appears as a contradiction between what is said, what is written, and what is intended.

In light the above, the research is divided into two parts; one is theoretical and aims to clarify the phenomenon of paradox in terms of language and terminology among Arabs and Westeres, with a quick overview of its most prominent types .The second is applied and studies the manifestations of paradox in one of Ibn al-Wardimaqama, represented by the paradox of title, the narrayors name,and the rhythm,inaddition to the paradox of pronunciation and meaning.

Key words: Irony, Maqama, Rhythm, Ibn al-wardi.-

Copyright **:**Tishreen University journal-Syria, The authors retain the copyright under a CC BY-NC-SA 04

* **Assistant Professor, College of Arts and Humanities, Department of Arabic Language, University of Furat.**

المفارقة في مقامة صفو الرّحيق في وصف الحريق

د. منى العلي*

(تاريخ الإيداع 2 / 8 / 2024. قبل للنشر في 31 / 10 / 2024)

□ ملخّص □

يروم هذا البحث التّعرّف إلى ظاهرة المفارقة وتجلّياتها في المقامة الموسومة بـ" صفو الرّحيق في وصف الحريق "لمؤلّفها ابن الورديّ؛ إذ تتيح المفارقة لقارئ النّصّ النّثريّ الولوج إلى عالمه الأدبيّ لتؤدّي بذلك وظائف عدّة؛ فهي عتبة فعّالة، ومفتاح من مفاتيح فكّ شفرات النّصّ الأدبيّ.

وتوصّل البحث إلى أنّ المفارقة قد عكست التّضادّ بين حال دمشق قبل الحريق وبعده، وقد تمثّل ذلك بالتّضادّ بين المعنى المباشر للمنطوق والمعنى غير المباشر؛ إذ اعتمد ابن الورديّ أسلوب التّراكم الدّلاليّ للتّضادّات الفرعيّة داخل المقامة للوصول إلى قمّة المفارقة؛ إذ يتعمّدها الأديب، ويخطّط لها بوساطة التّضاد بين الظّاهر والخفي، فتظهر على أنّها تناقض بين ما يُقال، وما يُكتب، وما يُقصد.

وفي ضوء ما تقدّم، جاء البحث في قسمين: أحدهما نظريّ؛ ويجري على تبيان ظاهرة المفارقة من حيث اللّغة والاصطلاح – عند العرب والغربيّين– مع إطلالة سريعة على أبرز أنواعها. وثانيهما تطبيقيّ؛ ويدرس تجلّيّات المفارقة في مقامة من مقامات ابن الورديّ ممثّلة بمفارقة العنوان، واسم الرّاوي، والإيقاع، إضافة إلى مفارقة اللّفظ والمعنى.

الكلمات المفتاحيّة: المفارقة، المقامة، الإيقاع، ابن الورديّ.

حقوق النشر :مجلة جامعة تشرين– سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

* **مدرّسة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، جامعة الفرات، دير الزور.**

مقدّمة:

تعدّ المفارقة من الظّواهر الأدبيّة واللّغويّة الّتي حظيت باهتمام كبير من قبل الباحثين في دراسات كثيرة على مدوّنات شعريّة ونثريّة، كما أنّها من المعايير الجماليّة والفنّيّة في النّصّ الأدبيّ.

وفي العصر المملوكيّ كثرت المقامات، وأقبل عليها الكتّاب والشّعراء والعلماء أيضاً، وهم بذلك يريدون مواكبة التّطوّر المقاميّ العربيّ، إلّا أنّ النّزر القليل منهم مَن حافظ على الصّورة الأساسيّة للمقامة المعروفة عند رائديها ومؤسّسيها كالهمذانيّ والحريريّ، ويمكننا القول: إنّ المقامة في العصر المملوكيّ كانت بمنزلة سجل تاريخيّ لبعض الحوادث المهمّة الّتي اعترت المجتمع المملوكيّ، ومن ذلك المقامة الموسومة بـ" صفو الرّحيق في وصف الحريق" لابن الورديّ؛ إذ رصد لنا فيها الحريق الّذي لحق بالمسجد الأمويّ، وآثاره.

أهمية البحث وأهدافه

وتتجلّى أهميّة هذا البحث في محاولة لدراسة المفارقة بأنواعها في مدوّنة نثريّة ممثّلة بمقامة ابن الورديّ؛ إذ إنّ المفارقة بوصفها تعبيراً أدبيّاً ولغويّاً تسمح للكاتب بالدّخول إلى عوالم النّصّ الأدبيّ، وتؤدّي مجموعة من الوظائف تختلف مستوياتها من نصّ إلى آخر.

وتتحدّد إشكاليّة البحث بمجموعة من الأسئلة، وهي كالآتي:

- ما المفارقة، وما أنواعها؟.
- كيف تجلّت المفارقة في مقامة ابن الورديّ" صفو الرّحيق في وصف الحريق"؟.
- ما الوظائف الّتي أدّتها المفارقة داخل النّصّ النّثريّ الممثّل بمقامة " صفو الرّحيق في وصف الحريق؟.

ويهدف البحث إلى بسط الحديث عن المفارقة، وتبيان أنواعها، وكيف تمظهرت في مقامة ابن الورديّ؛ فالمفارقة تجعل القارئ والمتلقّي على مدار واسع من التّفكير والتّأمّل لاكتشاف خبايا النّصّ، والغوص في علاقاته الخفيّة.

أمّا المنهج المتّبع في هذا البحث فهو المنهج الوصفيّ الّذي يقوم على دراسة الظّاهرة، وتحليل أبعادها الفنيّة والجماليّة.

وقد اعتمد البحث على عدد من المصادر والمراجع في سبيل إنجازه، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: موسوعة المصطلح النّقديّ المفارقة وصفاتها لـ" دي سي ميويك" قام بترجمته عبد الواحد لؤلؤة. وكتاب المفارقة في الشّعر العربيّ الحديث أمل دنقل، سعدي يوسف، محمود درويش أنموذجاً لـ" ناصر شبانة". وكتاب فنّ القصّ النّظريّة والتّطبيق لـ" نبيلة إبراهيم".

أوّلاً: المفارقة وأنواعها:

أ- ماهية المفارقة:

لقد قيل في مفهوم المفارقة الشّيء الكثير، وسوّدت فيها صفحات وصفحات، وأُحيط عند الباحثين بهالة من التّفخيم، ولكنّ هذا الأمر لا يمنعنا من التّقصّي عن معناها الدّقيق(اللّغويّ والاصطلاحيّ) بغية الكشف عن المعاني ذات الصّلة الدّقيقة بهذه اللّفظة؛ إذ تكاد تجمع المعاجم العربيّة قديمها وحديثها على أنّ المفارقة هي الفرق والافتراق، والفصل والتّباعد، والتّباين والتّمييز بين شيئين أو أمرين أو موقفين، ويؤكّد ذلك ما جاء في معجم "لسان العرب" من أنّ" المفارقة

مصدر فارق في باب المفاعلة، وجذرها الثّلاثيّ فرق، ومصدرها فرق، والفرق خلاف الجمع، وهو تفريق بين شيئين، ومفرق الطّريق متشعّبه الّذي يتشعّب من طرق أخرى، ويقال: فارق الشّيء مفارقة وافترقا أي باينه".[1]

ولم تخرج المعاجم الحديثة عن المعنى المتقدّم للمفارقة، ومن ذلك ما جاء في المعجم الوسيط: " فرق بين الشّيئين فرقاً وفرقاناً؛ أي فصّل وميّز أحدهما عن الآخر، وبين الخصوم: حكم وفصل."[2]

وبالانتقال إلى المعنى الاصطلاحيّ للمفارقة في المظانّ الأدبيّة العربيّة من جهة، والدّراسات الغربيّة من جهة أخرى فإنّنا نجده مصطلحاً عصيّاً على التّعريف الواحد الّذي يجمع مفاهيم الأدباء وتصوّراتهم له، ويعزى السّبب في ذلك إلى أنّ كلّ واحدٍ منهم تناولها بحسب مكتسباته المعرفيّة، لكنّ المشهور والشّائع أنّ المفارقة مصطلح غربيّ النّشأة، وهذا يقودنا للتّعرّف إلى هذا المصطلح عند الغربيّين أوّلاً، ثمّ عند العرب ثانياً.

لا شكّ– عند الباحثين جميعهم– في أنّ سقراط هو المؤسّس الأوّل والصّانع للمفارقة؛ إذ إنّ بدء ظهور المصطلح ارتبط بـ" أفلاطون، وكتابه المعروف بالجمهوريّة؛ إذ وردت كلمة Eironei عند أفلاطون في كتابه المذكور، ذكرها في إحدى محاورات سقراط؛ وهي طريقة معيّنة في المحاورات لاستدراج شخص ما حتى يصل إلى الاعتراف بجهله".[3]

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ لفظة (IRONY) الإنكليزيّة مشتقّة من الكلمة اليونانيّة Eroneia والأخيرة تعني الجهل الكاذب، أو التّظاهر بالجهل، ولم تدخل الاستعمال الأدبيّ إلّا في بداية القرن الثّامن عشر، لكنّ" اللّغة الإنكليزيّة كانت غنّيّة بمفردات سائرة في الاستعمال اللّفظيّ، يمكن اعتبارها مفارقة من حيث الجوهر، مثل: يسخر، يهزأ، يفخر..."[4].

وما لبث المصطلح أن تطوّر في أوروبا في نهاية القرن الثّامن عشر وبداية القرن التّاسع عشر وخاصّة في ألمانيا لما عرفته من تأمّلات فلسفيّة وجماليّة، وقد عرّفها دي سيوميك بأنّها" فنّ قول الشّيء دون قول الحقيقة"[5].

أمّا عند العرب فلا نعثر على وجود المفارقة بوصفها مصطلحاً، ولكنّ هذا لا يعدم وجود مصطلحات قاربتها في جانب من جوانبها، أو اصطبغت بصبغتها؛ فالنّقد العربيّ قديماً عرف كثيراً من المصطلحات الّتي تفضي في قليل أو كثير إلى معناها، ومنها التّهكّم، والتّورية، وتجاهل العارف، والهزل الّذي يُراد به الجدّ، والطّباق، والمجاز، وغير ذلك.

أمّا حديثاً فهناك تضارب في التّعريفات عند النّقّاد والبلاغيّين كلّ حسب رؤيته؛ فالباحثة نبيلة إبراهيم في كتابها " فنّ القصّ في النّظريّة والتّطبيق" تذهب إلى أنّ المفارقة" تعبير بلاغيّ يرتكز أساساً على تحقيق العلاقة الذّهنيّة بين الألفاظ أكثر ممّا يعتمد على العلاقة النّغميّة أو التّشكيليّة، وهي لا تنبع من تأمّلات راسخة ومستقرّة داخل الذّات فتكون بذلك ذات طابع غنائيّ أو عاطفيّ، ولكنّها تصدر أساساً عن ذهن متوقّد، ووعي شديد للذّات بما حولها."[6]

---

[1] ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقيّ المصريّ جمال الدّين أبو الفضل: لسان العرب، إعداد وتصنيف: يوسف خيّاط، تقديم الشّيخ: عبد الله العلايليّ، دار لسان العرب، بيروت–لبنان، مادة (فرق).

[2] أنيس، إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، مكتبة الشّروق الدّوليّة، القاهرة – مصر، 1972م، ج2، مادّة (فرق).

[3] إبراهيم، نبيلة: فنّ القصّ في النّظريّة والتّطبيق، مكتبة غريب، القاهرة– مصر، د،ط، د،ت، ص197.

[4] شبانة، ناصر: المفارقة في الشّعر العربيّ الحديث أمل دنقل سعدي يوسف محمود درويش أنموذجًا، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت– لبنان، ط1، 2002م، ص23.

[5] ينظر: ميويك، دي سي: موسوعة المصطلح النّقديّ، المفارقة وصفاتها، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، مج4، ص143.

[6] إبراهيم، نبيلة: فنّ القصّ في النّظريّة والتّطبيق، ص197.

ويذهب ناصر شبانة إلى عدّ المفارقة انحرافاً لغويّاً؛ إذ يقول:" إنّ المفارقة انحراف لغويّ يؤدّي بالبنية إلى أن تكون مراوغة، وغير مستقرّة، ومتعدّدة الدّلالات، وهي بهذا المعنى تمنح القارئ صلاحيّات أوسع."[7]

ومن التّعريفين السّابقين نلمح أنّ المفارقة لا تخرج عن الصّيغة أو الطّريقة البلاغيّة الّتي يستعملها الكاتب أو الشّاعر ليقول قولاً يحمل معنيين أحدهما ظاهر للعيان، ويمكن إدراكه، والآخر عميق باطنيّ يحتاج إلى إعمال العقل.

وتأسيساً على ما سبق نجد أنّ السّبق الحقيقيّ لنشوء المفارقة بوصفها مصطلحاً كان عند الغربيّين وفي الحقل الفلسفيّ خاصّة، أمّا عند العرب فالغالب الأعمّ أنّ المفارقة مصطلح بلاغيّ من الدّرجة الأولى، وأخذ يتطوّر إلى أن وصل إلى صورته الحديثة.

ب-أنواع المفارقة:

قسّم النّقّاد أسلوب المفارقة إلى أنواع عدّة، واختلفوا في ذلك؛ فهناك من قسّمها تبعاً لدرجة شدّتها، وقسّمها فريق آخر تبعاً لموقفها، وتمركزها في النّصّ. والقاسم المشترك عند كليهما أنّ للمفارقة نوعين رئيسين هما: المفارقة اللّفظيّة، ومفارقة السّياق أو الموقف.

1-ب-المفارقة اللّفظيّة:

تعرّف المفارقة اللّفظيّة بأنّها " شكل من أشكال القول يُساق فيه معنى ما، في حين يقصد منه معنى آخر يخالف غالباً المعنى السّطحيّ الظّاهر."[8]

ويمكن تحديد المفارقة اللّفظيّة على أنّها المفارقة الّتي يكون فيها المعنى الظّاهريّ واضحاً، ولا يتّسم بالغموض، وذا قوّة دلاليّة مؤثّرة، وكثيراً ما يكون المعنى الموجود في المفارقة اللّفظيّة هجوميّاً، ويحضر بصورة مكثّفة في شعر الهجّائين.

ويتعمّد الأديب الإشارة إلى المفارقة اللّفظيّة، ويخطّط لها بوساطة التّضاد بين الظّاهر والخفي، وهذا يقود إلى أنّ المفارقة اللّفظيّة معنى واضح للبلاغة؛ إذ تظهر المفارقة على أنّها تناقض بين ما يُقال، وما يُكتب، وما يُقصد؛ فالمفارقة اللّفظيّة " لا تخرج عن كونها دالّاً يؤدّي مدلولين نقيضين أحدهما قريب نتيجة تفسير البنية اللّغويّة حرفيّاً، والآخر سياقيّ خفيّ يجهد القارئ في البحث عنه واكتشافه."[9]

ظهرت المفارقة اللّفظيّة بأنواع مختلفة منها: مفارقة الإضراب (الاستدراك)؛ وفيها يستعين الأديب ببعض الأدوات اللّغويّة الّتي تعمل على إنتاج الأدلّة بصورة استثنائيّة وواعية؛ إذ يقول الأديب شيئاً ثمّ يعدل من مسار الفهم بإحدى تلك الأدوات؛ فالهدف الأساسيّ من قصائد الهجوم أو المواجهة هو إبراز المفارقات وأساليبها، فكلّما اكتشف القارئ سبلاً جديدة في المعنى زاد إحساسه بالمفارقة عن طريق استخدام بعض الأدوات الّتي تكفّلت بتحويل المعنى أو إلغائه، ومن هذه الأدوات نذكر:(لكن، إن الشّرطيّة، إذا الفجائيّة، إلّا الاستثنائيّة...).

وأمّا مفارقة التّهكّم فنجد أنّ الأديب يتّخذ من السّخرية أسلوباً، وعرف التّهكّم بأنّه " الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار، والوعد في مكان الوعيد، والمدح في مكان الاستهزاء".[10]

---

[7] شبانة، ناصر: المفارقة في الشّعر العربيّ الحديث، ص30.

[8] العبد، محمّد: المفارقة القرآنيّة دراسة في بنية الدّلالة، دار الفكر العربيّ، القاهرة- مصر، ط2، 2006م، ص54.

[9] شبانة، ناصر: المفارقة في الشّعر العربيّ الحديث، ص64.

[10] ابن حجّة الحموي، الشّيخ تقيّ الدّين أبي بكر علي: خزانة الأدب وغاية الأرب، المطبعة العامرة للكتاب، القاهرة – مصر، د.ت، ص123.

وأمّا مفارقة الحضور والغياب فيتعمّد بعض الشّعراء استخدام هذا النّوع من المفارقة في أشعارهم لجعل القارئ يبحث، ويتأمّل عن طبيعة القصيدة.

2-ب-مفارقة الموقف (السّياق):

وفي هذا النّوع من المفارقة لا يوجد صاحب مفارقة، بل هناك مراقب أو ضحيّة؛ بمعنى إنّ المفارقة هنا تعتمد على حسّ الأديب الّذي يرى به الأشياء والأحداث من حوله، وتصويرها بمنظور المفارقة، ويترك للمراقب (الإنسان) تحليلها، واستنباط أبعادها الفلسفيّة والشّعوريّة، وكشف خيوط تعارضها. ومن هنا تختلف المفارقة اللّفظيّة عن السّياقيّة في أنّ الأولى تعتمد في كشف حقيقتها على صاحب المفارقة(الأديب)، أمّا المفارقة السّياقيّة فإنّها تعتمد على المراقب أو القارئ في استنباط التّعارض بين المعنيين الظّاهر والعميق، وكشفهما، يقول دي سي ميويك:" المفارقة اللّفظيّة لا بدّ من أن تتضمّن وجود صاحب المفارقة ironist شخص يقوم بإحداث المفارقة، أو شخص ما يوظّف تكنيكاً عن وعي وعن قصد متعمد. أمّا مفارقة الموقف النّاتجة عن موقف ما فإنّها لا تتضمّن بالضّرورة وجود شخص يقوم بالمفارقة، لكنّها مجرّد حالة، أو ظرف، أو نتيجة لأحداث من شأنها أن تضيف إلى ذلك، أو ظرف، أو نتيجة لأحداث من شأنها أن تضيف إلى ذلك، ويتمّ رؤيتها والشّعور بها كنتيجة للمفارقة، وفي كلا النّوعين، المفارقة اللّفظيّة ومفارقة الموقف، يوجد شكل من أشكال المواجهة ، أو المقابلة إذ يتمّ وضع شيء بجانب شيء آخر من الأشياء المتعارضة."[11]

وتأسيساً على ما سبق، ففي المفارقة اللّفظيّة يكون المعنيان السّطحيّ والخفيّ في مواجهة مباشرة على خلاف السّياقيّة الّتي تتطلّب خفاءً وعمقاً في البحث عن طرفي المفارقة داخل النّصّ الأدبيّ، وربّما تحتاج إلى تحليل، واستنباط، وربط للنصّ بالسّياق الخارجيّ.

ثانياً: تجلّيات المفارقة في مقامة صفو الرحيق في وصف الحريق:

أ- مقامة صفو الرّحيق في وصف الحريق:

بدأ ابن الورديّ[12] هذه المقامة على غير عادته بقوله:(حدّث غياث بن سحاب عن ندي بن بحر)، وهي بداية موفّقة ومناسبة؛ فقد بيّن بوساطة كلامه بأنّه على سفر، ونزل دمشق، فصادف وصوله حريق دمشق الرّهيب الّذي حدث عام (740هـ). وفيها يصف ابن الورديّ ذلك الحدث بوصف بديعيّ مشوّق؛ إذ إنّه يصف معالم دمشق وأسواقها، ومدارسها، وكيفيّة وصول النّار إليها والتهامها، وذلك اللّهيب المتطاير الّذي أصبح به ليل دمشق نهارا من شدّته، فيبادر والي

---

[11] ميويك، دي سي: المفارقة وصفاتها، ص75.

[12] هو زين الدّين، أبو حفص عمر بن مظفّر بن عمر بن محمّد بن أبي الفواس بن الورديّ المعريّ الشّافعيّ، وُلد سنة إحدى وتسعين وستمئة من الهجرة(691هـ) بمعرّة النّعمان، ومنها جاءت نسبة المعريّ إليه.

وقد برع في النّظم والنّثر، كما برع في النّحو والفقه وغيرهما، ويظهر من رسائله أنّه اشتغل بالتّدريس، وخرّج طلّاباً عدّة، وقد أجازهم.

توفّي (ابن الورديّ) في السّابع عشر من ذي الحجّة سنة تسع وأربعين وسبعمئة من الهجرة النّبويّة مطعوناً في الطّاعون العام بحلب، وكان عمره يناهز السّتين عاماً.

تُنظر ترجمته في: العسقلانيّ شهاب الدّين أحمد بن حجر: الدّرر الكامنة في أعيان المئة الثّامنة، تحقيق: محمّد سيّد جاد الحقّ، دار الكتب الحديث، القاهرة، 1966م، 195/3. الكتبيّ محمّد بن شاكر: فوات الوفيّات والذّيل عليها، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 1973م، 157/2. السّبكيّ، تاج الدّين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي: طبقات الشّافعيّة الكبرى، تحقيق: مصطفى عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، ط1، 1990م، 373/10. الزركليّ، خير الدّين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط5، 2002م، 67/5.

دمشق مع مماليكه في محاولة الحدّ من الحريق، وفي هذه المقامة أيضاً وصف للواقع السّياسيّ الّذي منع حرّيّة الرّأي، وكشف الحقائق.[13]

ب-المفارقة في عنوان المقامة:

لا شكّ في أنّ العنوان من أهمّ العتبات النّصيّة المحيطة بالنّصّ الرّئيس؛ إذ إنّه يساعد في فهم دلالات النّصّ، وفكّ شفراته، وكشف خبايا معانيه. وعليه، فقد كان عنوان المقامة " صفو الرّحيق في وصف الحريق" المفتاح الأساسيّ لسبر أغوار النّصّ، والغوص في مكنوناته.

استطاع ابن الورديّ بوساطة العنوان أن يقيم بشاعريّة فائقة مفارقته بين حال دمشق قبل الحريق، وحالها بعد ذلك؛ فقد اشتمل العنوان على قسمين يربط بينهما رابط حرفيّ ينتمي إلى أحرف الجرّ وهو(في)؛ أمّا القسم الأوّل فيتكوّن من مفردة (صفو) مضافة إلى مفردة (الرّحيق)، وعند العودة إلى معاجم اللّغة العربيّة نجد أنّ كلمة (صفو) تشير إلى خلاصة الشّيء، وكلمة (الرّحيق) هي إحدى المفردات الدّالّة على الخمر، قال ابن سيده: وهو من أعتقها وأفضلها.[14] والأمر ذاته في القسم الثّاني في العنوان الّذي يتكوّن من تركيب إضافيّ يستند إلى مفردتين هما (وصف)، و(الحريق)، وتجمعهما علاقة الإضافة.

فابن الورديّ يخبرنا بوساطة العنوان عن دمشق وأصالتها، وهذا تجلّى في القسم الأوّل منه، بينما يخبرنا في القسم الثّاني منه إلى أنّ حريقاً التهمها وأصابها، وهنا تبدو المفارقة واضحة جليّة عن طريق الجناس بين المفردتين رحيق، وحريق؛ فالكلمتان تشتركان في الأحرف ذاتها، إلّا أنّ دلالتهما تختلف؛ فبينما تشير المفردة الأولى إلى شيء عذب جميل، تشير المفردة الثّانية إلى أمر جلل، وهو الحريق الّذي امتدّ على مساحة شاسعة من الجامع الأمويّ.

وتأسيساً على ما سبق، نجد أنّ دلالتي (رحيق، حريق) تقومان على العلاقة السّلبيّة، ممّا أعطى هذا التّقابل الدّلاليّ المضادّ تعادلاً نفسيّاً في تكريس فجوة الدّلالة بينهما، وهنا تكمن قيمة المفارقة الجماليّة ووظيفتها؛ فما تثيره في المتلقّي من بحث دائم عن المعنى يجعله يسير بوساطة خطوط النّصّ محاولاً الوصول إلى بناء وشائج بين ظاهر اللّفظ ومحمولاته الدّلاليّة دون أن يغفل عن دور السّياق في تحديد الدّلالة المفارقيّة.

ت-المفارقة في اسم الرّاوي:

اختار ابن الورديّ في مقامته هذه راوياً مختلفاً عن الرّاوي في مقاماته الأخرى، ولعلّه في تحديد اسم الرّاوي أراد أن يربط بين أجزاء النّصّ من حيث العنوان، والرّاوي، وموضوع المقامة.

وعليه، فقد اختار اسمه ليكون مناسباً لأحداث المقامة وهو(غيث بن سحاب عن نديّ بن بحر)، وتتجلّى المفارقة في أنّ اسم الرّاوي مشتقّ من مفردات مناقضة لمفردات الحريق؛ فالغيث، والسّحاب، والنّديّ، والبحر كلّها ألفاظ تشير إلى الماء الّذي يتغلّب على الحريق ويخمده، ولعلّ في اختيار هذا الاسم إشارة إلى الأمل المفقود في نفس ابن الورديّ بإطفاء الحريق، والسّيطرة عليه، إلى جانب ذلك أراد أن يضفي على نصّ مقامته حركة وحيوية، ويكسر بذلك الرّتابة والجمود، فلم تعد المفارقة محصورة في السّخرية والتّهكّم، بل أصبحت تدلّ على الانزياح والخروج عن المألوف والشّائع في اللّفظ والمعنى، واستعمال اللّغة بطريقة إيحائيّة غير مباشرة .

---

[13] **ينظر نصّ المقامة في: ابن الورديّ: ديوان ابن الورديّ، 1426هـ، ص65-68.**

[14] **ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (صفو)، ومادة (رحق).**

ث-مفارقة اللّفظ والمعنى:

وهنا تتراوح هذه المفارقة كما جاءت في نصّ المقامة ما بين المفارقة السّياقيّة، والمفارقة اللّفظيّة.

أمّا المفارقة اللّفظيّة فقد جاءت بوساطة حدّة التّضادّ؛ ففي مقطع واحد من مقامة "صفو الرّحيق في وصف الحريق" استند ابن الورديّ إلى ستّ آيات قرآنيّة، وأشار إلى سورتين باسميهما، وهما:(الزّمر، والجاثية)، والهدف من ذلك كلّه تدعيم الحجّة بالبرهان؛ فسلطة النّصّ الدّينيّ مطلقة لا جدال ولا شكّ فيها لدى المسلمين، وقد جاءت المرجعيّات الدّينيّة في المقامة لتحكي لنا موقفين متناقضين الأوّل منهما: قرار ومعين، وهدوء وسكينة، وقد ظهر ذلك في قوله:" وقد أويت من دمشق إلى ربوة ذات قرار ومعين"، ففيها اقتباس من الآية القرآنيّة ﴿**وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ**﴾[15]، والرّبوة مرتفع من الأرض والقرار؛ أي المكث في المكان، وبذلك تكون صالحة لأن تكون مكان استقرار وهدوء بما اشتملت عليه من النّخيل المثمر، فتكون مريم وابنها في ظلّ هذا المكان لا تحتاج إلى قوتها.[16]

كما فسّرت هذه الرّبوة الّتي قصدتها مريم بأنّها دمشق، وأرض منبسطة؛ أي تنبسط نفس مَن يأوي إليها، وبهذا تكون صالحة لقرار النّاس لما فيها من الزّروع والثّمار، ومعين؛ أي ماء معين جار[17].

أمّا الموقف الثّاني فهو وصف الحريق، وفيه يلجأ ابن الورديّ إلى الإطناب في وصف الأحداث، والمجريات الّتي رافقت الحريق، ويستخدم لإيضاح هول الفاجعة آيات قرآنيّة أحسن توظيفها في خدمة المعنى المراد؛ ففي قوله تعالى: ﴿**يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنْتَصِرَانِ**﴾[18] يصوّر هروب النّاس يوم القيامة من نار جهنّم، فتردّهم الملائكة والزّبانية بإرسال اللّهب من النّار والنّحاس المذاب عليهم، أمّا قوله تعالى: ﴿**وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[19]؛ فالنّاس لهول يوم القيامة وشدّته وعظمته إذا جيء بجهنّم فإنّها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلّا جثا على ركبتيه[20]، وفي قوله تعالى: ﴿**أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾[21] فيشير إلى لحظة قد تكون غائبة عن النّاس، وستأتيهم بغتة، إنّ هذه النّصوص كلّها قد أكّدت ما يريده ابن الورديّ تصويره، وهو هول الحريق وشدّته الّتي تذهل منها النّفوس؛ إذ امتدّ هذا الحريق حتّى وصل إلى مساحة كبيرة، وكانت ألسنة اللّهب قد تطايرت في السّماء لتسقط في مواضع بعيدة عن مكان الحريق.

بناء على ما سبق، نلمح المفارقة في استدعاء النّصّ القرآنيّ- في الموقفين السّابقين-، ودخوله في هيكليّة النّصّ المقاميّ؛ إذ نجد أنّ ابن الورديّ قد أحدث مفارقة في حضور الشّاهد القرآنيّ؛ فهو حين أراد وصف حال دمشق قبل الحريق استدعى آيات السّكينة والهدوء، والأمان والاستقرار، على أنّه في سياق حديثه عن الحريق، ووصف مآسيه، وما عاد به على دمشق نجده قد استدعى آيات الهول والعذاب والنّار.

---

[15] ينظر: ابن عاشور، محمد الطّاهر: تفسير التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، 1984م، ج9، ص370.

[16] ينظر: الألوسي، أبو الفضل شهاب الدّين السّيّد محمد البغداديّ: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، تحقيق وتعليق وتقديم: محمّد أحمد الآمد وعبد السّلام السّلاميّ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت- لبنان، ط1، 1990م، ج3، ص226.

[17] سورة الرّحمن، الآية 35.

[18] ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمّد السّلامة، دار طيبة للنّشر والتّوزيع، السّعوديّة، ط2، 1990م، ج7، ص498.

[19] سورة الجاثية، الآية 28.

[20] ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج7، ص271.

[21] سورة يوسف، الآية 107.

كما تجلّت المفارقة في اختصار ابن الورديّ لما كانت عليه دمشق من هناء ، واستقرار، وراحة، والإطناب في وصف الحريق؛ والسّبب في ذلك يُعزى إلى أنّ همّه تجلّى في وصف الحريق في دمشق، وليس الحديث عن حالة دمشق قبل الحريق، أضف إلى ذلك أنّه يشير بذلك إلى أنّ للهناء والسّعادة لحظات، في حين للوجع والمآسي ساعات، وأيّام، وربّما دهور.

ج-مفارقة الإيقاع:

تتجلّى الفكرة المحوريّة للمقامة في فاعليّة المفارقة، وقد تكون المفارقة جملة، وقد تشمل النّصّ كاملاً[22]، وفي مقامة" صفو الرّحيق في وصف الحريق" تستحوذ المفارقة على مسافة وارفة منها؛ إذ اتّكأ ابن الورديّ عليها في رسم صورة دمشق قبل الحريق، ومقابلتها بضدّها بعد الحريق؛ فالأشياء تُعرف بأضدادها كما يُقال.

يروم ابن الورديّ أن يوصل للمتلقّي صورة تفيض بالألم عن جمال دمشق، وما آل إليه إثر هذا الحريق، باسطاً الحجج والصّور أمام المتلقّي، آملاً في أن يستشعر المتلقّي ذاته تلك المفارقة بين الواقعين، كقوله:" وقلتُ لمَن يبني وقد عدمت الاصطبار، وكنت أسمع أنّ دمشق جنّة فإذا هي نار:

دمشق كما كنت تسمعُ جنّة ألم ترها محفوفة بالمكاره

فأحفظه هذا الكلام وغلظه وأنشدني في صدّه وازوراره[23]

يمثّل هذا النّصّ نموذجاً من كثير من الأمثلة الموجودة في المقامة الّتي تنطق بفكرة المقامة المحوريّة، وتوحي بجملتها الكبرى أو مركزها، ومن هنا يمكن أن نتعرّف صلة هذه الفكرة بما ينبثق عنها من فضاءات النّصّ وتوازياته، وأنساقه الإيقاعيّة والدّلاليّة؛ إذ بنى ابن الورديّ جملة هذا النّصّ الكبرى على المفارقة بين جمال دمشق وحالها المزري بعد الحريق، تلك المفارقة التي تشطر النّصّ نصفين، وتجعل الصّور والأفكار والفضاءات المبثوثة في النّصّ تنتمي إلى هذين العالمين بضدّيّة واضحة، وتخلق إيقاع قراءة النّصّ الّتي يسيطر عليها إحساس المفارقة، ويجليها جمال التّلقّي والاستقبال، ويتّضح ذلك بالجملة الخبريّة الابتدائيّة في الشّطر الأوّل من البيت الأوّل، فلم يؤكّد المتكلّم كلامه؛ لأنّه على يقين تامّ بأنّ السّامع يعلم، وعلى دراية تامّة بأنّ دمشق هي الجنّة، وأدّى الأسلوب الإنشائيّ المستند إلى الاستفهام الإنكاريّ في الشّطر الثّاني من البيت عينه دوره في التّوكيد؛ إذ خرج الاستفهام عن معناه الحقيقيّ إلى التّقرير؛ فدمشق جنّة، ولكن انتابها المكروه، وساورتها المصائب فغدت كالنّار، وقد خدم الطّباق بين الجنّة والنّار الفكرة ذاتها. واختيار الكلمات من مثل (أحفظه، غاظه) لتعبّر عن ردّة فعل المتلقّي لسماع الرّاوي الّذي يرى أنّ دمشق قد أصبحت ناراً بعدما كانت جنّة؛ إذ أزعجه هذا الكلام وغاظه، وعزا ما حصل لدمشق إلى أنّها كالجنّة محفوفة بالمكاره.

وتهيمن الجملة الفعليّة على هذا النّصّ بما تحمله من إيقاعات الحركة والحدوث، وما يثيره نسق التّوازي التّكراريّ للفعل الماضي خاصّة الّذي يوحي بحقيقة هذا الحدث (حصول الحريق) الّذي يشكّل بدوره بؤرة دلاليّة في بنية النّصّ، ومن الأمثلة في المقامة قول الرّاوي:" فارتاع النّائب بدمشق لهذه النّائبة، ورأى قلوب النّاس كأموالهم ذائبة، وتطيّر ذلك من تكدّر دولته فكان كما تطيّر وتصوّر(...)، وصادم النّار فغلبها، وكيف لا وتنكز هو البحر، وقابل كبد جمرها بالقطر،

[22] **ينظر: إبراهيم، نبيلة المفارقة، مجلّة فصول، مجلّد 7، العدد 3-4، 1987(إبريل، سبتمبر 1987م) ، ص132.**

[23] **ابن الورديّ: ديوان ابن الورديّ، ص66.**

وأحكم بالماء والهدم إخمادها، واستأصل شأفتها بالرّوم وأبادها، وأصبح أهل دمشق حيارى، وترى النّاس سكارى وما هم بسكارى."[24]

خضعت الكلمات من مثل (أبادها، جمرها، إخمادها، فغلبها...) بفعل طول مقاطعها (ها) لانفعال قويّ، وأخذت جانباً من الدّهشة والتّعجّب الّتي اعترت الرّاوي، فهو يشاهد لهيبا مروّعا، وحريقا مدمّرا اعتصرت له القلوب فدمعت له العيون.

الخاتمة:

بعد دراسة ظاهرة المفارقة وتجلّياتها في مقامة ابن الورديّ الموسومة بـ" صفو الرّحيق في وصف الحريق" يمكن إجمال النّتائج الّتي توصّل إليها البحث كالآتي:

- لم يرد مصطلح المفارقة في كتب البلاغة، وإنّما جاء بمسميّات أخرى حملت معنى المفارقة؛ فالمفارقة تقنيّة أسلوبيّة ساعدت على إحياء التّراث البلاغيّ القديم، وأماطت اللّثام عن ألوان مفارقيّة تجذب المتلقّي للغوص والبحث عن الخفاء.

- تكمن مفارقتا العنوان واسم الرّاوي في براعة ابن الورديّ في ترجمة حالته الشّعوريّة تجاه حريق دمشق على وفق دلالات وإيحاءات تستمدّ كيانها من التّعارض والتّناقض، والخروج عن المألوف في اللّفظ والمعنى، واستعمال اللّغة بطريقة موارية.

- عكست المفارقة في المقامة التّضادّ بين حال دمشق قبل الحريق وبعده، وقد تمثّل ذلك بالتّضادّ بين المعنى المباشر للمنطوق والمعنى غير المباشر؛ إذ اعتمد ابن الورديّ أسلوب التّراكم الدّلاليّ للتّضادّات الفرعيّة داخل المقامة للوصول إلى قمّة المفارقة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدّين السّيّد محمد البغداديّ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، تحقيق وتعليق وتقديم: محمد أحمد الآمد وعبد السّلام السّلاميّ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، ط1، 1990م.
2. إبراهيم، نبيلة: فنّ القصّ في النّظريّة والتّطبيق، مكتبة غريب، القاهرة، د،ط، د.ت.
3. إبراهيم، نبيلة: المفارقة، مجلّة فصول، مجلّد 7، العدد 3،4، (إبريل، سبتمبر 1987م)
4. أنيس، إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، مكتبة الشّروق الدّوليّة، القاهرة– مصر، 1972م.
5. الحنبلي، ابن العماد: شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، إحياء التّراث العربيّ، بيروت– لبنان.
6. الزّركليّ خير الدّين، الأعلام. دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط5، 2002م.
7. السّبكيّ، تاج الدّين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي: طبقات الشّافعيّة الكبرى. الطّبعة الأولى، تحقيق: مصطفى عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت– لبنان، 1999م.

[24] **ابن الورديّ: ديوان ابن الورديّ، ص66.**

8. شبانة، ناصر: المفارقة في الشّعر العربيّ الحديث أمل دنقل سعدي يوسف محمود درويش أنموذجًا، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان، ط1، 2002م.
9. ابن عاشور، محمد الطّاهر: تفسير التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، 1984م.
10. العبد، محمّد: المفارقة القرآنيّة دراسة في بنية الدّلالة، دار الفكر العربيّ، القاهرة– مصر، ط2، 2006م.
11. العسقلانيّ، شهاب الدّين أحمد بن حجر: الدّرر الكامنة في أعيان المئة الثّامنة. تحقيق: محمّد سيد جاد الحقّ، دار الكتب الحديث، القاهرة– مصر، 1966م.
12. الكتبيّ محمّد بن شاكر: فوات الوفيّات والذّيل عليها. تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت– لبنان، 1973م.
13. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمّد السّلامة، دار طيبة للنّشر والتّوزيع، السّعوديّة، ط2، 1990م.
14. ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقيّ المصريّ جمال الدّين أبو الفضل – لسان العرب، إعداد وتصنيف: يوسف خيّاط، تقديم الشّيخ: عبد الله العلايليّ، دار لسان العرب، بيروت– لبنان.
15. ميويك، دي سي: موسوعة المصطلح النّقديّ، المفارقة وصفاتها، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان، ط1، 1993م.
16. ابن الورديّ، زين الدّين أبو حفص عمر بن مظفّر بن عمر الورديّ الشّافعيّ: ديوان ابن الورديّ. الطّبعة الأولى، تحقيق: عبد الحميد هنداويّ، دار الآفاق العربيّة، القاهرة– مصر، 1427هـ.

Sources and references

alquran alkarim
1. alalwsy, 'abu alfadl shihab alddyn alssyd muhamad albghdady, ruh almaeani fi tafsir alquran aleazim walssbe almathani, tahqiq wataeliq wataqdimi: muhamad 'ahmad alamad waeabd alsslam alsslamy, dar 'iihya' alttrath alerby, bayrut, lubnan, ta1, 1990m.
2. 'iibrahim, nabilati: fn alqs fi alnnzryt waltttbyq, maktabat ghirib, alqahirata, du,ta, da.t.
3. 'iibrahim, nabilatu: almufariqati, mjllt fusul, mjlld 7, aleadad 3,4, ('iibril, sibtambar 1987m)
4. 'anis, 'iibrahim: almuejam alwasiti, maktabat alshshrwq alddwlyt, alqahiratu- masr, 1972m.
5. alhanbali, aibn aleamadi: shadharat aldhdhhb fi 'akhbar min dhahba, 'iihya' alttrath alerby, bayrut- lubnan.
6. alzzrkly khayr alddyn, al'aelami. dar aleilm lilmalayini, birut, lubnan, ta5, 2002m.
7. alssbky, taj alddyn 'abi nasr eabd alwahaab bin eali bin eabd alkafi: tabaqat alshshafeyt alkubraa. alttbet al'uwlaa, tahqiqu: mustafaa eabd alqadir 'ahmad eataa, dar alkutub alelmyt, bayrut- lubnan, 1999m.
8. shbanat, nasir: almufariqat fi alshsher alerby alhadith 'amal dunqul saedi yusif mahmud darwish anmwdhjan, almwssst alerbyt llddrasat walnnshr, bayrut, lubnan, ta1, 2002m.
9. abin eashur, muhamad alttahr: tafsir altthryr walttnwyr, alddar alttwnsyt llnnshr, tunis, 1984m.
10. aleabdu, mhmmd: almufaraqat alqranyt dirasat fi binyat alddlalt, dar alfikr alerby, alqahirata- masr, ta2, 2006m.
11. alesqlany, shihab alddyn 'ahmad bin hajar: alddrr alkaminat fi 'aeyan almiat alththamn. tahqiqu: mhmmd sayid jad alhqq, dar alkutub alhadithi, alqahirata- misr, 1966m.

12. alktby mhmmd bin shakir: fawat alwfyat waldhdhyl ealayha. tahqiqu: 'iihsan ebbas, dar sadr, birut- lubnan, 1973m.
13. abin kathir: tafsir alquran aleazimi, tahqiqu: sami bin mhmmd alsslamt, dar tiibat llnnshr walttwzye, alssewdyt, ta2, 1990m.
14. abin alwrdy, zayn alddyn 'abu hafs eumar bin mzffr bin eumar alwrdy alshshafey: diwan aibn alwrdy. alttbet al'uwlaa, tahqiqu: eabd alhamid hndawy, dar alafaq alerbyt, alqahirata- masr, 1427hi.
15. abin manzur, muhamad bin makram bin manzur al'ifryqy almsry jamal alddyn 'abu alfadl - lisan alearbi, 'iiedad watasnifa: yusif khyat, taqdim alshshykh: eabd allah alelayly, dar lisan alearbi, bayrut- lubnan.
16. myuyk, di si: mawsueat almustalah alnnqdy, almufariqat wasifatiha, tarjamati: eabd alwahid lulut, almwssst alerbyt llddrasat walnnshr, bayrut, lubnan, ta1, 1993m.